ترجمـــة للشيخ

رحمـــه الله

في محاضرة ألقيت

موسم ثقافات الجامعة الإسلامية

بالمدينة المنورة

ألقاها وأعدها تلميـذه

عطية محمد سالم

مع صاحب الفضيلة

والدنا الشيخ محمد الأمين الشنقيطى

رحمه الله

بقلم : الشيخ عطيه محمد سالم

القاضى بالمحكمة الشرعية بالمدينة

الحمد لله المستحق لصفات الجلال وكمال الأسماء ، المتفرد بالدوام وبالبقاء . خلق الخلق من عدم وقضى عليهم بالموت والفناء . وجعل الدنيا مزرعة الآخرة ، حصادها الثواب والجزاء ، واختار من عباده رسلا يبلغون عنه ، فهم بينه وبين خلقه وسطاء ، واصطفى خاتمهم محمداً صلى الله عليه وسلم فهو صفوة الأصفياء ، بعثه رحمة للعالمين ، فجاء بالحنيفية السمحاء ، أطل فجرها بمكة من قمة حراء .

وأشرقت شمس نهارها بطيبة الفيحاء . ظلت مهاجر صحبه فى ألفة ووفاء ، فتحمل الصحب الكرام تراثه . ماورثوه منه هداية وضياء . وورثوه من بعدهم توريث الآباء للأبناء . وغدت المدينة مشرقة أنوارها يشع منها للعالم نور وسناء وتوالت الأجيال تلو أجيال

إنتاجها للعالم صفوة العلماء ممن قاموا لله حقاً ، وأخلصوا لله صدقاً ، ونشروا العلم فى عفة وإباء ، نهلوا من المنهل الصافى من منبعه قبل أن يخالطه الترب أو تكدره الدلاء ، فى مهبط الوحى محط رحالهم ، وفى الروضة غدوهم ورواحهم فى غبطة وهناء .

درسوا كتاب الله حكماً وحكمة ، حتى غدت آياته لمرضى الصدور شفاء ، وتكشفت حجب المعانى فانجلت من تحتها أشمس وضياء .

وترسموا سنن النبى محمد ، وكذلك سنة الخلفاء ، وكذا الصحابة والتابعون فإنهم لهم بهم أسوة واقتداء ، فهم النجوم فى ليل السرى ، وهم الهداة لطالب الهدى وأدلاء ، وهم الأئمة قدوة الأمة وعلى الدين أمناء .

ونحن بالمدينة وفى هذا الجوار الكريم أشد إحساساً بمكانة العلم ومنزلة العلماء ، وأسرع فرحاً بهم وأشد حزناً على موتهم ، وألماً لفراقهم ، إن فى موت العلماء لغربة للغرباء .

ولاشك أن هذه الآلام تزداد ، وهذا الحزن يشتد أكثر وأكثر حينما نكون قد عرفنا هذا العالم أو عاصرناه ، ولمسنا فضله واستفدنا علمه .

وهذا القدر كنا فيه سواء نحو علماء المسلمين عامة، وشيخنا الأمين خاصة.

وإنى كأحد أبنائه ومن جملة تلاميذه أقف اليوم معزياً متعزياً، ومترجماً مترحماً، وقد عظم المصاب وعز فيه العزاء، وأقول ماقد قلته على البديهة، عندما سألنى سائل من هذا نعزيه فى الشيخ، فقلت هذه الأبيات:

أقول للسائل لما سأل   من ذا نعزى فيما نزل
كل من لاقيت فعزه   وابدأ بنفسك فى الأول
عز الجميع بموته   واعلمه أن الخطب جلل
موت العالم رزء العالم   فى موته يأتى الخلل
لو نزل الرزء بقمة   فوق الجبال لهد الجبل
خير التعازى فى أننا   نرد إلى الله عز وجل

ولو استحق أحد التعزية لشخصه لاستحقها ثلاثة أشخاص: الشيخ عبد العزيز بن باز لزمالته ٢١ سنة وماله عنده من منزلة، والشيخ عبد العزيز بن صالح أول من عرفه وتسبب فى جلوسه، وصاحب السمو الملكى الأمير عبد الله بن عبد الرحمن لمحبته وتقديره.

نعم أقف معزيا متعزيا مترجما مترحما كما قال القاضي عياض عن بعض مشايخه « مالكم تأخذون العلم عنا وتستفيدون منا ، ثم تذكروننا فلا تترحمون علينا » إنه ربط أصيل بين العلم والعالم ، وتنبيه أكيد على أن الاعتراف بفضل العالم شكر وتقدير لنفس العلم .

رحم الله شيخنا رحمة واسعة ، ورحم الله علماء المسلمين فى كل زمان ومكان .

وقد قام الخلف بحق السلف فى حفظ تاريخهم بالترجمة لهم خدمة لتراثهم وإحياء لذكرهم وما أثر عن السخاوى أنه قال : « من ورخ مؤمنا فكأنما أحياه » . أى من ترجم له وأرخه . وهاهم علماء الأمة يعايشون كل جيل بسيرتهم وتاريخهم فى أمهات الكتب .

وإنى لأعتقد حقا أن تراجم الرجال مدارس الأجيال ، أى فى علومهم ومعالم حياتهم .

وإن مثل شيخنا الأمين رحمه الله لحقيق بترجمته والاستفادة من منهج حياته فى تعلمه وتعليمه .

وإنى لأستعين الله فيما أقدم وأستلهمه فيما أقول :

إلى رحمة الله وحسن جواره

فقيد العلم ياعلم الرجال ، نعاك العلم فى حلق السؤال . نعم فقيد الدرس ياعلم الرجال ، نعاك الدرس فى فصل المقال .

انتقل إلى رحمة الله وحسن جواره صاحب الفضيلة وعلم الأعلام الشيخ الجليل الإمام الهمام ، زكى النفس ، رفيع المقام ، كريم السجايا ، ذو الخلق الرزين ، عف المقال ، حميد الخصال ، التقى الأمين ، والدنا الشيخ محمد الأمين الشنقيطى . توفى ضحى يوم الخميس ١٧/١٢/٩٣ هـ وكانت وفاته بمكة المكرمة مرجعه من الحج ، ودفن بمقبرة المعلاة وصلى عليه سماحة رئيس الجامعة الإسلامية فضيلة الشيخ عبد العزيز ابن عبد الله بن باز فى الحرم المكى ، مع من حضر من المسلمين بعد صلاة الظهر من ذلك اليوم .

وفى ليلة الأحد ٢٠/١٢ أقيمت عليه صلاة الغائب بالمسجد النبوي وصلى عليه صاحب الفضيلة الشيخ عبد العزيز بن صالح آل صالح إمام وخطيب المسجد النبوى ورئيس الدائرة الشرعية بالمدينة ، ومحاكم منطقة المدينة بعد صلاة العشاء مباشرة ، وصلى عليه من حضر من الحجاج مالا يُحصى عدداً .

ومن غريب الصدف وحسن التفاؤل أن يقرأ الإمام فى صلاة العشاء قوله تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها لا يبغون عنها حولا) إلى آخر السورة.

وفى الركعة الثانية: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً) .

وقد سألت فضيلته عن هذه القراءة أهو قاصد لهذه الآيات ومختار لها ، أم جاءت عفواً ؟ فقال حفظه الله : بل عفواً فما ا ملاحظة عليها ؟ . قلت : إنها من أغرب الصدف ، لأنك صليت على الشيخ الأمين رحمه الله بعدها ، فظننت أنك قصدت إليها . ولكنه من المناسبات الحسنة ، تغمد الله الفقيد برحمته وأسكنه فسيح جنته إنه جواد كريم رؤوف رحيم ، كما صلى عليه بالجامعة الإسلامية وفى مساجد الدوادمى .

مات رحمه الله تعالى بعد أن أحيا علوماً درست ، وخلف تراثاً باقياً ، وربَّي أفواجاً متلاحقة تمد بالآلاف من خريجى كليات ومعاهد الإدارة العامة بالرياض ، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

ما مات إلا بعد أن أصبح له فى كل دائرة من دوائر الحكومة فى

أنحاء البلاد إبناً من أبنائه ، وفى كل قطر إسلامى بعثة من البعثات الإسلامية لمنح الجامعة التعليمية بالمدينة المنورة .

ما مات إلا بعد أن ترك فى كل مكتبة وفى كل منزل (أضواء البيان) تبدد الظلام وتهدى السبيل .

فلايبعد ولا يغالى من يقول : ما مات من خلف هذا التراث ، وأدى تلك الرسالة فى حياته ، يبقى أثراً خالدا على مر الأجيال والقرون.

لقد أدى رسالة عظمى . وانتقل إلى الرفيق الأعلى . ليحصد مازرع ويجنى ثمار ماغرس ، وينعم بما قدم رحمه الله رحمة واسعة .

لقد عاش رحمه الله فى هذه البلاد منذ سنين حين قدم لأداء فريضة الحج ، ثم اعتزم المقام وعمل فى كبريات معاهد العلم وجامعاته ، وألف وحاضر ، ولم تُكتب عنه كلمة ولم يكن يرضى بالكتابة عنه . لقد كانت أعماله تترجم عنه ومؤلفاته تعرف به حتى عرفه الصغير والكبير والقاصى والدانى ، والعالم والعامى ، فلم تكن وفاته رزءاً على فرد أو أسرة أو جماعة أو قطر ، ولكن على العالم الإسلامى كله .

وما كتبت عنه سوى كلمة موجزة استقيتها منه رحمه الله عندطبع أول محاضرة له بالجامعة الإسلامية فى آيات الصفات وطبعت فى مقدمتها .

ومات رحمه الله ولم تكتب عنه أيضاً إلا تعريف موجز بالنشأة والمولد وما إلى ذلك .

والآن وقد تحتمت الكتابة عنه لاتعريفاً به ، فهو أعرف من أن يُعرف ، فهو العلم الخفاق ، والطود الأشم ، والشمس المشرقة . فليست الكتابة للتعريف ، ولكن لرسم خطاه وبيان منهجه مما سمعت منه رحمه الله ولمسته من حياتى معه المدة الطويلة . وإنى لأسجل هذا عنه رحمه الله للقريب والبعيد ، لكل من عرفه عالما ولم يعرفه طالباً أو عرفه هنا ولم يعرفه هناك فى بلاده ، فأقول أولا : إنى لا أستطيع إيفاء المقام حقه لعظم مقامه رحمه الله وكبير منزلته ، وإن كل كتابة عن أى شخص تعتبر ذات جانبين :

جانب ترجمة له وبيان لحقيقته وتعريف بشخصه ومنزلته ، وجانب سيرته ومنهجه . بما يمكن أن يكون نهجاً يُسار عليه ومنهجاً يُقتدى به ومؤثر يؤثر على غيره ممن أراد السير فى سبيله والنسج على منواله ، والاستفادة من أقواله وأفعاله .

والكتابة عن أي شخص من هذين الجانبين تعتبر بمثابة شخصيته فى إبراز صورته وبيان مكانته وفيها تقييمه فى عظمته أو توسطه أو

غير ذلك ، وأى عالم أو طالب علم فإن له شخصية مزدوجة ، فى حياته العامة وسلوكه العام . وحياته الخاصة فى طلب العلم ، ومنهجه فى تحصيله ونشره ، والكتابة بهذا الاعتبار تكون عن الترجمة الشخصية ، والسيرة العلمية .

وقد ملئت المكتبات الإسلامية بتراجم وسير الأعلام من الرجال من عصر الصحابة رضى الله عنهم إلى عصور التدوين ، وامتدت إلى اليوم حفظاً للتراث الإسلامى ، وتسجيل للرعيل الأول. ولم تكن الكتابة عن أى شخص وافية كاملة إلا بتعدد الكتاب عنه وتستخلص الحقيقة من مجموع ما كُتب عنه ، لأن كل كاتب عن أى شخص لن يخلو من أحد أمور ثلاثة :

١ — إما موال متأثر : فقد يقع تحت تأثير العاطفة ، فينظر من زاوية واحدة . فيقال فيه « وعين الرضا عن كل عيب كليلة »

٢ — وإما معادٍ منفعل : فيقع تحت طائلة الانفعال فيصدق عليه تتمة البيت السابق « كما أن عين السخط تبدى المساويا » .

٣ — وإما بعيد معتدل : يرغب التقييم بميزان الاعتدال ومثل هذا قد يفوته مالم يكن حريصاً عليه . بدون تقصير .

ومن هنا لم تكن كتابة كاتب عن إنسان ما مطابقة كل التطابق ومكتملة غاية الاكتمال .

وقد يتحرج الأصدقاء مخافة التهمة والتـأثر بالألفة أو يتوقف الأعداء مكتفين بالإغضاء ، أو يتردد الآخرون خشية التقصير . ولهذا فقد تذهب الشخصية الفذة دون كتابة عنها فيفتقده الحاضرون ويفقد سيرته القادمون . علماً بأن سيرة الرجال مدرسة الأجيال .

وفضيلة الوالد الشيخ محمد الأمين رحمه الله له شخصيـة متميزة وسيرة واضحة يعرفها كل من لقيه أو حضر مجلسه أو استمع درسه أو قرأ كتبه أو حتى سمع عنه . وقد طبقت شهرته الآفاق .

وإن الكتابة عن مثله رحمه الله لمن أشق مايكون لتعدد جوانبه الشخصية وانفساح مجالاته العلمية والحال أنه لا مرجع لمن يكتب عنه إلا المخالطة وطول العشرة وتصيد الأخبار من ذويه الأخيار .

وحيث إن أحق الناس بالكتابة عنه هم تلامذته وأبناؤه ، وإني وإن كنت قد أكرمني الله بصحبته وطول ملازمته ليل نهار وكثرة مرافقته في الظعن والأسفار . داخل وخارج المملكة . وسمعت منه رحمه الله الشيء الكثير والكثير جداً ، فإني لأجدني تتجاذبني

عوامل الإقدام والإحجام . فإذا استحضرت كل ماسمعته منه ، وتصورت كل مالمسته فيه أجدنى أحق الناس بالـكتابة عنه .

وإذا تذكرت مكانته وتراءت لى منزلته وأحسست تأثيره على نفسى تلاشت من ذهنى كل معانى الكتابة أمام تلك الشخصية المثالية وتراجعت بعيداً عن ميادين الـكتابة عنه .

ولـكن إذا كان كل كاتب لايستطيع تقييم كل شخصية تقييماً حقيقياً يدل على الشخص دلالة مطابقة ، وفى أسلوب المســاواة . لا موجزاً ولا مطنباً . إذا كان هذا حال كل كاتب مع كل شخص .

وإذا كان تلميذ الشيخ أحق بالـكتابة عنه فمالى لا أدلى بدلوى بالدلاء ، وأعمل قلمى مع الأقلام ، وأبدى ماعندى سواء ماسمعته منه مباشرة أو عنه بواسطة ، أو لمسته من جوانب حياته وسيرته .

دون انطلاق مع العاطفة إلى حد الإطناب ، ودون إحجام مع الوجل والتهيّب والوجل إلى حد الإيجاز . إنه لشيخى ، وأعز علىّ من والدى .

إنه حقاً والدى حساً ومعنى ، لقد عشت فى كنفه سنوات معه فى بيته ، وقد يظلنا سقف واحد فى غرفة واحدة أمداً طويلاً .

وقد وجدت منه رحمه الله العناية والرعاية كأحد أبنائه كأشد مايرعى الوالد ولده ، وقد أجد منه الإيثار على نفسه في كثير من أحيانه ، مما يطول ذكره ، وَلا يُنسى فضله .

وأعز من الإيثار مامنحنى من العلوم والآثار ، والتوجيه الأدبى ، والفضل الخلقى ، والسمو النفسى ، فى مجالسه وأحاديثه ، ودروسه من غير ماحد وبدون تقيد بوقت ، إذ كان رحمه الله كل مجالسه مجالس علم ، وكل أحاديثه أحاديث أدب وتوجيه ، ولم يكن يحتاج إلى تحضير لدرس ، ولا مراجعة لجواب على سؤال .

ولم يكن لى معه رحمه الله من وقت معين مع كثرة الإخوان الدارسين عليه المقيمين معه فى بيته إلا وقت واحد هو مابين المغرب والعشاء لمدة سنتين دراسيتين ونحن بالرياض . قرأت فى خلالهما تفسير سورة البقرة .

كانت تلك الدراسة عليه رحمه الله هى رأس مالى فى جلّ تحصيلى ، وعليها أساس دراستى الحقيقية سواء فى المقررات أو غيرها . لأن فيها جميع أبواب الفقه . وعلى مباحثها تنطبق جل قواعد الأصول . ولا يبعد من يقول إن ما بعدها من السور يُعتبر تفسيراً لها ، أو أن

من أتقن تفسيرها سهل عليه تفسير ما بعدها . وقد كانت دراستها سبباً فى تأليف كتابى دفع إيهام الاضطراب . وأضواء البيان . وكل منهما إثر سؤال وجواب .

مع ما درست من الأصول ومبادىء فى المنطق ودقائق فى البلاغة وغير ذلك .

لقد وجدت منه رحمه الله ما لم أجده من غيره على الإطلاق ، كما وأظن أن أحداً لم يجد منه ما وجدته أنا منه . فلئن شرفت بخدمته فلقد حظيت بصحبته . فجزاه الله عنى أحسن الجزاء .

وإن صاحب مثل هذه العلاقة مع مثل هذه الشخصية ليحس بثقل ديونه على كاهله ، ويلمس عظم المنة تطوق عنه . فهل أستطيع توفية هـذا الجانب ، فحسب فضلا عن الجوانب العـامة التى هى موضوع الترجمة والسيرة ، وهل يتأتى مني الإحجام عن الـكتابة وأنا مدين بمثل تلك الديون ، مـكبَّل بتلك المنن مما يجعلنى أحق بقول القائل :

كلينى لهم يا أميمـة ناصب
وليل أقاسيه بطيء الـكواكب

تطاول حتى قلت ليس بمنقض
وليس الذى يرعى النجوم بآيب
وصدر أراح الليل عازب همه
تضاعف فيه الحزن من كل جانب
على لعمر نعمة بعد نعمة   لوالده ليست بذات عقارب

ولئن قيل :

وتجلدى للشامتين أريهمو
أنى لريب الدهر لا أتضعضع

فإنى لأقول :

وتجلدى للسامعين أريهمو   شمس الحقيقة من سناه تطلع

وإنى ملزم بالكتابة ولو تأثرت بالعاطفة فإنى معذور :

وإن قصرت عن حقه فلا عذر لى فى التقصير .

وإنى لأعتبر ما أقدمه بداية لا نهاية وتذكرة للآخرين من حاضرين وغائبين، لعلهم يتمون ما بقى ، ويكملون ما نقص .

وإذا كانت التراجم والسير تنقسم إلي ذاتية وغير ذاتية . والذاتية هى ما يكتبها الشخص عن نفسه من طفولته إلى رجولته .

ويسجل ماجرى له وعليه . وهى أصدق ما تـكون إن كان صاحبها معتدلا أميناً .

وقد ترجم بعض العلماء والفلاسفة لأنفسهم منهم :

١ — ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨؛ كانت ترجمته لنفسه مرجعاً لـكل من كتب عنه من تلاميذه .

٢ — والعماد الأصفهانى المتوفى سنة ٥٩٧ فى مقدمة كتابه « البرق الشامى » .

٣ — وابن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦ .

٤ — وابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٥ ، والسيوطى وغيرهم .

والترجمة غير الذاتية مايكتب غيره عنه

وإن ما أقدمه فى هذا المجال ليجمع بين القسمين الذاتى ، وغير الذاتى ، لأنه يشتمل على ماقاله هو عن نفسه وسمعته منه مباشرة . كما تشتمل على ماعرفته ولمسته من حياته مدة صحبتى له .

والله أسأل أن يجعل من سيرته خير قدوة لتلامذته ، وأن يجعل فى ولديه خير خلف لخير سلف . وأن يأجرنا فى مصيبتنا ويخلفنا خيراً منها ، ونسأله تعالى أن يتغمده بوافر رحمته ويسكنه فسيح جنته وأن

يجزل له العطاء ويجزيه أحسن الجزاء عما بذله من جهد ، وخلفه من علم . إنه جواد كريم (إن أول مايبدأ به فى مثل هذا المقام لهو الاسم واللقب والنسب والنشأة والموطن) .. الخ .

وهذه ترجمته رحمه الله كما سمعتها منه مباشرة :

الاسم : هو محمد الأمين وهو علم مركب من اسمين ، وذكر محمد تبرك .

واللقب : آبا . بمد الهمزة وتشديد الباء من الإباء .

واسم أبيه : محمد المختار بن عبد القادر بن محمد بن أحمد نوح بن محمد بن سيدى أحمد بن المختار من أولاد أولاد الطالب أوبك وهذا من أولاد أولاد كرير بن الموافى بن يعقوب بن جاكن الأبر ، جد القبيلة الكبيرة المشهورة المعروفة بالجكنيين . ويعرفون بتجكانت .

نسب القبيلة : ويرجع نسب هذه القبيلة إلى حمير . كما قال الشاعر الموريتانى محمد فال ولد العينين مستدلا بفصاحتهم على عروبتهم :

إنا بنو حسن دلت فصاحتنا ... أنا إلى العرب الأقحاح ننتسب
إن لم تقم بينات أننا عرب ... ففى « اللسان » بيان أننا عرب
أنظر إلى مالنا من كل قافية ... لها تذم شذور الزبرج القشب

وبيّن شاعر آخر مرجع تلك القبيلة إلى حمير بقوله :

ياقائلا طاعناً فى أننا عرب   قد كذبتك لنا لسن وألوان
وسم العروبة بادٍ فى شمائلنا   وفى أوائلنا عز وإيمان
أسادحمير والأبطال من مضر   حمر السيوف فما ذلوا ولا هانوا

لقد كانت خصائص العروبة ومميزاتها موفورة لدى الشيخ رحمه الله ، ولدى أهله وذويه فى النظم و النثر ، كما توفرت العلوم والفنون فى بيته وقبيلته . وقد بيَّن أحد شعرائهم أصالة العروبة فيهم وارتضاعهم إياها من أمهاتهم فى قوله يخاطب من ينكرها عليهم :

لنا العروبة الفصحى وإنا   أحق العالمين بها اضطلاعا
عن الكتب اقتبستموها انتفاعا
بما فيها ونرضعها ارتضاعا

المولد : ولد رحمه الله فى عام ١٣٢٥ هـ .

الموطن : كان مسقط رأسه رحمه الله عند ماء يسمى (تَنْبَه) من أعمال مديرية (كيفا) من القطر المسمى بشنقيط وهو دولة موريتانيا الإسلامية الآن .

علماً بأن كلمة شنقيط كانت ولا تزال اسماً لقرية من أعمال مديرية أصار فى قصى موريتانيا فى الشمال الغربى .

نشأته رحمه الله : وقبل الحديث عن نشأته يحسن إيجـاز نبذة عن البيئة فى تلك البلاد .

تعتبر الحياة الاجتماعية فى تلك البلاد بحسب المواطنين قسمين: عرب وعجم والعربية لغة الجميع .

أما العمل : فالعجم أكثر أعمالهم الزراعة والصناعة وسلالتهم من الزنوج .

وأما العرب فقسمان : طلبة وغير الطلبة . والطلبـة من يغلب عليهم طلب العلم والتجارة وغيرهم من يغلب عليهم التجارة والإغارة . وهم قبائل عدة ، ومن القبائل من يغلب عليها الطلب ، ومنها من يغلب عليها الإغارة والقتال

وقبيلة الجـكنيين خاصة قد جمعت بين طلب العلم ، وفروسية القتال . مع عفة عن أموال الناس ، وفى هذا الجو كان طلب العلم على قدم وساق سواء فى حلهم أو ترحالهم ، كما قال بعض مشايخهم العلامة المختار بن بونا :

ونحن ركب من الأشراف منتظم
أجل ذا العصر قدراً دون أدنانا

قد اتخـذنا ظهور العيس مدرسة
بهـا نبــين دين الله تبيـانا

أما كرم الطبع فهذا سجية فى جميعهم وأمر يشب فيه الصغير ، ويشيب عليه الكبير وقد ألفوا الضيف لنجعة منازلهم ، ومن عاداتهم إذا نزل وفد على بيت ، فإن أهل هذا المنزل يرسلون لأهل بيت المضيف مما عندهم قلّ أو كثر مشاركة فى قرى الضيف وتعاوناً مع المضيف حتى لو كان معدماً غدا واجداً ، ويرحل الوفد وهو فى غاية الرضا . وهكذا دواليك .

وفى هذا الجو وتلك البيئة نشأ رحمه الله كما سمعته يقول: توفى والدى وأنا صغير أقرأ فى جزء عمّ ، وترك لى ثروة من الحيوان والمال ، وكانت سكناى فى بيت أخوالى وأمى ابنة عم أبى، وحفظت القرآن على خالى عبد الله بن محمد المختار بن إبراهيم بن أحمد نوح جد الأب المتقدم .

طلبه للعلم : حفظ القرآن فى بيت أخواله على خاله عبـد الله كما تقدم ، وعمره عشر سنوات .

قال رحمه الله : ثم تعلمت رسم المصحف العثمانى (المصحف الأم) عن ابن خالى سيدى محمد بن أحمد بن محمد المختـار ، وقرأت

عليه التجويد فى مقرأ نافع برواية ورش من طريق أبى يعقوب الأزرق وقالون من رواية أبى نشيط ، وأخذت عنه سنداً بذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم وذلك وعمرى ستة عشر سنة

أنواع الدراسة فى القرآن : تعتبر الدراسة فى علوم القرآن منهجاً متكاملاً لا تقتصر على الحفظ والأداء ، بل تتناول معرفة رسم المصحف أى نوع كتابته ما كان موصولاً أو مفصولاً ، وما رسم فيه المد أو كان يمد بدون وجود حرف المد ، وقد يكون حرفاً صغيراً أو نحو ذلك .

ثم ضبط مافيه من منشأيه فى الرسم أو التلاوة . ومن المشهور عندهم فى هذا رجز (محمد بن بوجه) المشهور المعروف بالبحر، تعرض فيه لكل كلمة جاءت فى القرآن مرة واحدة أو مرتين أو ثلاث مرات إلى سبع وعشرين مرة أى من الكلمات المشتبهة ،وأفرد كل عدد بفصل فمثلا : كلمة (أعينهم) بالرفع جاءت ثلاث مرات قال فيها :

أعينهم بالرفع من غير حضور من بعد كانت وتولت وتدور

ومن الثنائى : كلمة (الاشياع) بالعين قال فيه :

أشياع بالعين فهل من مدكر فى سبإ من قبل بأنهم ذكر

وقد درس هذا كله فى طفولته ، وكانت له زيادة نظم على ذلك

تذييلا لزيادة الفائدة ،كما قال : على البيت الأخير مبيناً حركاته وإعرابه :

في سورة القمر خاطب وانصبا   وجره وغيبنه في سبا

أى في سورة القمر تكون تلاوتها الخطاب والنصب « ولقد أهلكنا أشياعكم » فهل من مدكر .

وفى سورة سبأ تكون تلاوتها بالغيبة والجر « كما فعل بأشياعهم » وهذه دراسة لاتكاد توجد إلا ماشاء الله ، وهى من المهام العلمية لحفظها رسم القرآن من التغيير والتبديل وهى من آثار تعهد الله بحفظ هذا القرآن المنزل من عنده سبحانه .

ثم قال رحمه الله : وفى أثناء هذه القراءة درست بعض المختصرات فى فقه مالك كرجز الشيخ ابن عاشر ، وفى أثنائها أيضاً درست دراسة واسعة فى الأدب على زوجة خالى أم ولد الخال أى أن ولد خاله يعلمه العلوم الخاصة بالقرآن ، وأمه تعلمه الأدب ، قال : أخذت عنها مبادىء النحو كالأجرومية وتمرينات ودروس واسعة فى أنساب العرب وأيامهم ، والسيرة النبوية ، ونظم الغزوات لأحمد البدوى الشنقيطى وهو يزيد على ٥٠٠ بيتاً وشروحه لابن أخت المؤلف المعروف بحماد ، ونظم عمود النسب للمؤلف وهو يعد بالآلاف

وشرحه لابن أخته المذكور على خصوص العدنانيين، لأنه مات قبل شرح مايتعلق بالقحطانيين.

هذه دراسة فى علوم القرآن والأدب والسير والتاريخ كانت فى بيت أخواله على أخواله وأبناء أخواله وزوجات أخواله ، أى كان بيت أخواله المدرسة الأولى إليه . أما بقية الفنون فقال :

١ — أولاً : الفقه المالكى ، وهو المذهب السائد فى البلاد درست مختصرخليل بدأ دراسته فيه على الشيخ محمد بن صالح إلى قسم العبادات ثم درس عليه النصف من ألفية ابن مالك . ثم أخذ بقية الفنون على مشايخ متعددة ، فى فنون مختلفة ، وكلهم من الجكنيين ومنهم مشاهير العلماء فى البلاد منهم :

١ — الشيخ محمد بن صالح المشهور بابن أحمد الأفرم.

٢ — والشيخ أحمد الأفرم بن محمد المختار .

٣ — والشيخ العلامة أحمد بن عمر .

٤ — والفقيه الكبير محمد النعمة بن زيدان .

٥ — والفقيه الكبير أحمد بن مُودْ .

٦ — والعلامة المتبحر فى الفنون أحمد فال بن آدَه .

وغيرهم من المشايخ الجكنيين .

قال رحمه الله : وقد أخذنا عن هؤلاء المشايخ كل الفنون : النحو ، والصرف ، والأصول ، والبلاغة . وبعض التفسير والحديث .

أما المنطق وآداب البحث والمناظرة فقد حصلناه بالمطالعة .

هذا ما أملاه على رحمه الله وسجلته عنه .

علماً بأن الفن الذى درسه على المشايخ أو مطالعة من الكتب ، لم يقتصر فى تحصيله على دراسته ، بل كان دائماً يديم النظر ويواصل التحصيل حتى غدا فى كل منه كأنه متخصص فيه ، بل وله فى كل منه اجتهادات ومباحث مبتكرة ، سنلم بها إن شاء الله عند إيراد المنهج العلمى لدراسته وآثاره العلمية .

منهجه العلمى فى الدراسة :

وقبل إيراد المنهج العلمى له رحمه الله فى دراسته ، نلم بالمنهج العام السائد فى بلاده لكافة طلبة العلم وطريقة تحصيله .

تعتبر طريقة الدراسة فى تلك البلاد جزءاً من حياة البوادى حلاً وارتحالاً . وإذا أقام أحد المشايخ فى مكان توافد عليه الطلاب للدراسة عليه ومكث حتى يأخذوا عنه ، وقد يقيم بصفة دائمة لدوام الدراسة عليه ، ويُقال له « المرابط » نظراً لإقامته الدائمة لنشر العلم .

ولا يأخذ المرابط من طلابه شيئاً وإن كان ذا يسار ساعد المحتاجين من طلابه، وقد يساعد أهل ذاك المكان الغرباء من الطلاب

فينزلون حول بيته ويبنون لهم خياماً أو مساكن مؤقتة. ويكون لهم مجلس علم للدرس والمناقشة والاستذكار.

وقد يكون المرابط مختصاً بفن واحد، وقد يدرس عدة فنون. فإذا كان مختصاً بفن واحد فإن دروسه تكون فى هذا الفن موزعة فى عدة أماكن منه بحسب مجموعات الطلاب، فقد تكون مجموعة فى البداية منه، ومجموعة فى النهاية وأخرى فى أثنائه وهكذا. فتتقدم كل مجموعة على حدة فتدرس على الشيخ، ثم تأتى المجموعة الأخرى وهكذا.

وإذا كان يدرس عدة فنون، فإنه يقسم طلاب كل فن على النحو المتقدم

إفراد الفنون: ولا يحق لطالب أن يجمع بين فنين فى وقت واحد، بل يدرس فناً حتى يكمله كالنحو مثلا، ثم يبدأ فى البلاغة حتى يكملها. وهكذا يبدأ مثلا فى الفقه حتى يفرغ منه ثم يبدأ فى الأصول حتى يكمله. سواء درسها على عدة مشايخ أو على شيخ واحد.

طريقة الدراسة اليومية : يبدأ الطالب بكتابة المتن فى اللوح الخشبي فيكتب قدر مايستطيع حفظه ، ثم يمحوه ، ثم يكتب قدراً آخر حتى يحفظ مقرأ من الفن حسب التقسيم المعهود . فمثلا النحو ، تعتبر الألفيـة أربعة مقارىء ، ويعتبر متن خليل فى الفقه نحواً من ذلك .

فإذا حفظ الطالب مقرا من الفن تقـدم للدراسة فيشرحه له الشيخ شرحاً وافياً بقدر ماعنده من تحصيل ، دون أن يفتح كتابا أو يحضر فى مرجع ثم يقوم هؤلاء للاستذكار فيما بينهم ومناقشة ماقاله الشيخ ، وقد يأخذون بعض الشراح لمقابلته على ماسمعوه أو يرجعون إلى بعض الحواشي ، ولا يجتـازون ذاك المكان من الدرس حتى يروا أنهم قد حصلوا كل مافيه . وليس عليهم من سرعة أو إنهاء كتاب بقدر ماعليهم من فهم وتحصيل ما فى الباب ، وقد ذكروا عن بعض الطلاب ممن عرفوا بالذكاء والقدرة على التحصيل ، أنه كان لا يزيد فى متن خليل على سطرين فقط . فقيل له . لم لاتزيد وأنت قادر على التحصيل فقال : لأنني عجلان لأعود إلى أهلى ، فقالوا له إن العجلان يزيد فى حصته ، فقال أريد أن أتقن ما أقرأ حتى لا أحتاج إلى إعادة دراسته فأتأخر .

الحياة الدراسية :

دراسة الشيخ رحمه الله : على هذا المنهج كانت دراسة الشيخ رحمه الله ،إلا أنه تميز ببعض الأمور ، قل إن كانت لغيره . نوجز منها كالآتى :

١ — فى مبدأ دراسته : تقدم أنه أتيح له فى بادىء دراسته مالم يتح لغيره حيث كان بيت أخواله مدرسته الأولى . فلم يرحل فى بادىء أمره للطلب . وكان وحيد والديه ، فكان فى مكان التدلل والعناية .

٢ — قال رحمه الله : كنت أميل إلى اللعب أكثر من الدراسة حتى حفظت الحروف الهجائية وبدأوا يقرئوننى إياها بالحركات ، با فتحة با ، بى كسرة بى ، ب بو ضمة بو ، وهكذا ث د ث . فقلت لهم أو كل الحروف هكذا ؟ قالوا : نعم . فقلت : كفى إنى أستطيع قراءتها كلها على هذه الطريقة كى يتركوننى فقالوا : اقرأها ، فقرأت بثلاثة حروف أو أربعة وتنقلت إلى آخرها بهذه الطريقة ، فعرفوا أنى فهمت قاعدتها واكتفوا منى بذلك وتركونى . ومن ثم حُببت إلىّ القراءة .

٣ — وقال رحمه الله : ولما حفظت القرآن ، وأخذت الرسم

العثمانى ، وتفوّقت فيه على الأقران عُنيت بى والدتى وأخوالى أشد عناية ، وعزموا على توجيهى للدراسة فى بقية الفنون . فجهزتنى والدتى بجملين أحدهما عليه مركبى وكتبى ، والآخر عليه نفقتى وزادى ، وصحبنى خادم ومعه عدة بقرات ، وقد هيئت لى مركبى كأحسن ما يكون من مركب ، وملابس كأحسن ماتكون فرحا بى وترغيباً لى فى طلب العلم . وهكذا سلكت سبيل الطلب والتحصيل .

تقوم الحياة الدراسية على آساس منع الكلفة وتمام الألفة سواء بين الطلاب أنفسهم أو بينهم وبين شيخهم مع كمال الأدب ووقار الحشمة . وقد تتخللها الطرف الأدبية والمحاورت الشعرية ، ومن ذلك ماحدثنيه رحمه الله . قال : قدمت على بعض المشايخ لأدرس عليه ولم يكن يعرفنى من قبل ، فسأل عني من أكون ، وكان فى ملإ من تلامذته فقلت مرتجلا :

هذا فتى من بنى جاكان قد نزلا ... به الصباعن لسان العرب قدعدلا
رمت به همة علياء نحوكم ... إذ شام برق علوم نوره اشتملا
فجاء يرجو ركاما من سحائبه ... تكسو لسان الفتى أزهاره حللا

إذ ضاق ذرعا بجهل النحو ثم أبا ألا يميز شكل العين من فعلا
قد أتى اليوم صبا مولعاً كلفا بالحمد لله لا أبغى له بدلا

يريد دراسة لامية الأفعال :

وقد مضى رحمه الله فى طلب العلم قدما وقد ألزمه بعض مشايخه بالقرآن . أى أن يقرن بين كل فنين حرصاً على سرعة تحصيله وتفرساً له فى القدرة على ذلك ، فانصرف بهمة عالية فى درس وتحصيل .

وقد خاطبه بعض أقرانه فى أمر الزواج فقال فى ذلك ، وفى الحث على طلب العلم :

دعانى الناصحون إلى النكاح غداة تزوجت بيض الملاح
فقالوا لى تزوج ذات دل خلوب اللحظ جائلة الوشاح
تبسم عن نوشرة رقاق يمج الراح بالماء القراح
كأن لحاظها رشقات نبل تذيق القلب آلام الجراح
ولا عجب إذا كانت لحاظ لبيضاء المحاجر كالرماح
فكم قتلا كميا ذا ولاحى ضعيفات الجفون بلا سلاح
فقلت لهم دعونى إن قلبى من الغى الصراح اليوم صاحى
ولى شغل بأبكار عذارى كأن وجوهها ضوء الصباح

أراها فى المهارق لابسات براقع من معانيها الصحاح
أبيت مفكراً فيها فتضحى لفهم الفدم خافضة الجناح
أبحت حريمها جبراً عليها وما كان الحريم بمستباح

نعم، إنه كان يبيت فى طلب العلم مفكراً وباحثاً حتى يذلل الصعاب، وقد طابق القول العمل.

حدثنى رحمه الله قال: جئت للشيخ فى قراءتى عليه فشرح لى كما كان يشرح، ولكنه لم يشف ما فى نفسى على ماتعودت، ولم يرو لى ظمئى. وقمت من عنده وأنا أجدنى فى حاجة إلى إزالة بعض اللبس وإيضاح بعض المشكل وكان الوقت ظهراً فأخذت الكتب والمراجع فطالعت حتى العصر، فلم أفرغ من حاجتى فعاودت حتى المغرب فلم أنته أيضا، فأوقد لى خادمى أعواداً من الحطب أقرأ على ضوئها كعادة الطلاب، وواصلت المطالعة وأتناول الشاهى الأخضر كلما مللت أو كسلت والخادم بجوارى يوقد الضوء حتى انبثق الفجر وأنا فى مجلسى لم أقم إلا لصلاة فرض أو تناول طعام وإلى أن ارتفع النهار وقد فرغت من درسى وزال عنى لبسى، ووجدت هذا المحل من الدرس كغيره فى الوضوح والفهم فتركت المطالعة ونمت، وأوصيت خادمي أن لا يوقظنى لدرسى فى ذلك اليوم اكتفاء بما حصلت عليه واستراحة من عناء سهر البارحة.

فقد بات مفكراً فيها فأصبحت　　لفهم القدم خافضة الجناح

وإن هذا لدرس لأبنائه ومنهج لطلاب العلم فى الصبر والدأب والمثابرة. وقد نفعني الله بهذه الحادثة فى دراستى وتدريسى وخاصة فى صورة مشابهة فى الفرائض لم أكن درستها على أحد وكان الاختبار فى المقروء لا فى المقرر.

وتلك هى آفة الدراسة النظامية اليوم وكنت كلما ضجرت فى تحقيقها، تذكرت قصته رحمه الله فصبرت حتى حصلتها ولله الحمد والمنة. وكان من بعد الظهر إلى هزيع من الليل. ولكن كم كانت لذتى وارتياحى.

ومع هذه الشاعرية الرقراقة والمعانى العذاب الفياضة والأسلوب السهل الجزل، فقد كان يتباعد رحمه الله عن قول الشعر مع وفرة حفظه إياه، وله فى ذلك أبيات يقول فيها:

أنقذت من داء الهوى بعلاج　　شيب يزين مفارقي كالتاج
قد صدنى حلم الأكابر عن لمى　　شفة الفتاة الطفلة المغناج
ماء الشبيبة زارع فى صدرها　　رمانتى روض كحق العاج
وكأنها قد أدرجت فى برقع　　يا ويلتاه بها شعاع سراج
وكأنما شمس الأصيل مذابة　　تنساب فوق جبينها الوهاج

يعلى لموقع جنبها فى خدرها　　فوق الحشية ناعم الديباج
لم يبك عينى بين حى جيرة　　شدوا المطى بأنسع الأحداج
نادت بأنغام اللحون حداتهم　　فتزيلوا والليل أليل داجى
لا تصطبينى[1] عاتق فى دلها　　رقت فراقت فى رقاق زجاج
مخضوبة منها بنان مديرها　　إذ لم تـكن مقتولة بمزاج
طابت نفوس الشرب حيث أدارهـا
رشـأ رمى بلحاظ طرف ساجى
أو ذات عود أنطقت أوتارها　　بلحون قول للقلوب شواجى
فتخال رنات المثانى أحرفا　　قد رددت فى الحلق من مهتاج

وقد سألته رحمه الله عن تركه الشعر مع قدرته عليه وإجادته فيه فقـال : لم أره من صفات الأفاضل وخشيت أن أشتهر به ، وتذكرت قول الشافعى فيما ينسب إليه :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى　　لـكنت اليوم أشعر من لبيد

ولأن الشاعر يقول فى كل مجال . والشعر أكذبه أعذبه . فلم أكثر منه لذلك .

---

(١) أى لا تستميلنى .

ومع هذا فقد كانت له رحمه الله عدة مؤلفات نظماً فى عدة فنون سيأتى بيانها إن شاء الله .

أعماله فى البلاد : كانت أعماله رحمه الله كعمل أمثاله من العلماء : الدرس والفتيا ، ولكنه كان قد اشتهر بالقضاء وبالفراسة فيه ورغم وجود الحاكم الفرنسى إلا أن المواطنين كانوا عظيمى الثقة فيه فيأتونه للقضاء بينهم ويفدون إليه من أماكن بعيدة أو حيث يكون نازلاً .

طريقته فى القضاء : كان إذا أتى إليه الطرفان استكتبهما رغبتهما فى التقاضى إليه وقبولهما ما يقضى به ثم يستكتب المدعى دعواه ويكتب جواب المدعى عليه أسفل كتابة الدعوى ويكتب الحكم مع الدعوى والإجابة ويقول لهما اذهبا بها إلى من شئتما من المشايخ أو الحكام .

أما المشايخ فلا يأتى أحدهم قضية قضاها إلا صدقوا عليها . وأما الحكام فلا تصلهم قضيه حكم فيها إلا نفذوا حكمه حالاً . وكان يقضى فى كل شىء إلا فى الدماء والحدود وكان للدماء قضاء خاص .

قضاء الدماء : كان الحاكم الفرنسى فى البلاد يقضى بالقصاص فى القتل بعد محاكمة ومرافعة واسعة النطاق وبعد تمحيص القضية

وإنهاء المرافعة وصدور الحكم يعرض على عالمين جليلين من علماء البلاد ليصادقوا عليه، ويسمى العالمين لجنة الدماء ولا ينفذ حكم الإعدام في القصاص إلا بعد مصادقتهما عليه .

وقد كان رحمه الله أحد أعضاء هذه اللجنة ولم يخرج من بلاده حتى علا قدره وعظم تقديره ، وكان علماً من أعلامها وموضع ثقة أهلها وحكامها ومحكومها .

خروجه من بلاده رحمه الله : كان خروجه من بلاده لأداء فريضة الحج وعلى نية العودة وكان سفره براً ، كتب فيه رحلة ضمنها مباحث جليلة كان آخرها مبحث القضايا الموجهة في المنطق مع علماء أم درمان بالمعهد العلمي بالسودان .

وبعد وصوله إلى هذه البلاد تجددت نية بقائه ولعل من الخير وبيان الواقع ذكر سبب بقائه : لقد كان في بلاده كغيره يسمع الدعاية ضد هذه البلاد باسم الوهابية ، إلا أن بعض الصدف قد تغير من وجهات النظر « وإذا أراد الله أمراً هيأ له الأسباب » ومن عجيب الصدف أن ينزل رحمه الله في بعض منازل الحج بجوار خيمة الأمير خالد السديري دون أن يعرف أحدهما الآخر ، وكان الأمير خالد يبحث مع جلسائه بيتاً في الأدب وهو ذواقة أديب وامتد الحديث

إلى أن سألوا الشيخ لعله يشاركهم فوجدوا بحراً لا ساحل له ، ومن تلك الجلسة وذاك المنزل تعدلت الفكرة بل كانت تلك الخيمة بداية منطلق لفكرة جديدة ، وأوصاه الأمير إن هو قدم المدينة أن يلتقي بالشيخين الشيخ عبد الله الزاحم رحمه الله والشيخ عبد العزيز بن صالح حفظه الله .

وفى المدينة التقى بهما رحمه الله . وكان صريحاً معهما فيما يسمع عن البلاد وكانا حكيمين فيما يعرضان عليه ، ما عليه أهل هذه البلاد من مذهب فى الفقه ومنهج فى العقيدة .

وكان أكثرهما مباحثة معه فضيلة الشيخ عبد العزيز بن صالح . وأخيراً قدّم للشيخ كتاب المغنى كأصل للمذهب وبعض كتب شيخ الإسلام كنهج للعقيدة ، فقرأها الشيخ وتعددت اللقاءات وطالت الجلسات فوجد الشيخ مذهباً معلوماً لإمام جليل من أئمة أهل السنة وسلف الأمة أحمد بن حنبل رحمه الله .

كما وجد منهجاً سليماً لعقيدة السلف تعتمد الكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة ، فذهب زيف الدعايات الباطلة وظهر معدن الحقيقة الصحيحة ، وتوطدت العلاقة بين الطرفين ، وتجددت رغبة متبادلة فى بقائه لإفادة المسلمين .

ورغب رحمه الله فى هذا الجوار الكريم وكان يقول : ليس من عمل أعظم من تفسير كتاب الله فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتم ذلك بأمر من جلالة الملك عبد العزيز رحمه الله وكان الشيخان أقرب الناس إليه ودرس الشيخ عبد العزيز بن صالح الصرف والبيان عليه . رحم الله الموتى وحفظ الله الأحياء .

وهنا كلمة يجب أن تقال للحقيقة ولطلبة العلم خاصة . نضعها فى ميزان العدالة وقانون الإنصاف : لقد كان لجلوس الشيخ رحمه الله فائدة مزدوجة استفاد وأفاد .

أما استفادته فأمر حتمى ومنطقه علمى للآتى :

وهو أن منهج الدراسة فى بلاده كان منصباً أكثر ما يكون على الفقه ، وفى مذهب مالك فقط . وعلى العربية متناً وأسلوباً . والأصول والسيرة والتفسير . وتقدم أنه رحمه الله درس المنطق بالمطالعة ولم تكن دراسة الحديث تحظى بما يحظى به غيرها للاقتصار على مذهب مالك . وكان الشيخ رحمه الله إماما فى كل ما تقدم مما هو شائع فى البلاد .

ولما عزم على البقاء وبدأ التدريس فى المسجد النبوى وخالط العامة والخاصة وجد من يمثل المذاهب الأربعة ، ومن يناقش فيها ،

ووجد فى المسجد النبوى دراسة لاتقتصر على مذهب مالك . بل ولا على غيره، فكان لابد من دراسة بقية المذاهب بجانب مذهب مالك ، وبما أن الخلاف المذهبى لاينهيه إلا الحديث أو القرآن ، فكان لزاماً من التوسع فى دراسة الحديث ، وقد ساعد الشيخ على هذا التوسع والاستيعاب وقوة الاستدلال ودقة الترجيح ماهو متمكن فيـه من فن الأصول والعربية ، مع توسعه فى دراسة الحديث ، وبالأخص المجاميع كنيل الأوطار وفتح البارى وغيرها .

وقد ظهر ذلك فى منهجه فى أضواء البيان حينما يعرض لمبحث فقهى مختلف فيه فيستوفى أقوال العلماء ، ويرجح مايظهر له بمقتضى الدليل عقلا كان أو نقلاً .

وهذا المنهج هو سبيل أهل التحصيل الدأب على الدراسة ، ومواصلة المطالعة والتنقيح .

أما فى العقيدة فقد بلورها منطقاً ودليلاً ، ثم لخصها فى محاضرة آيات الأسماء والصفات فى أول محاضرات الجامعة ثم بسطها ووضحها إيضاحاً شافياً فى أخريات حياته ، فى كتابى آداب البحث والمناظرة دليلا واستدلالا وعرضاً وإقناعاً . ومن آثار بيانه لها وأسلوبه فيها ما قاله فضيلة الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله

لما سمع بيان الشيخ لعقيدة السلف فى مسجد الشيخ محمد رحمه الله قال : جزى الله عنا الشيخ محمد الأمين خيراً على بيانه هذا، فالجاهل عرف العقيدة ، والعالم عرف الطريقة والأسلوب .

وهذه الحقيقة تضع بين يدى طالب العلم منهج الاستزادة فى التحصيل وطموحه فيه ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « منهومان لا يشبعان أبداً : طالب علم وطالب مال » . هذا جانب استفادته ، أما جانب إفادته فهو ما سنتحدث عنه إن شاء الله .

أولا فى المسجد النبوى : يعتبر التدريس فى المسجد النبوى من أهم التدريس فى كبريات جامعات العالم ، فى نشر العلم ، وهو الجامعة الأولى للتشريع الإسلامى . منذ عهد النبوة . وحين كان جبريل عليه السلام يأتى لتعليم الإسلام فى مجالس الرسول صلى الله عليه وسلم . ومنذ كانت مجالس الخلفاء الراشدين وعلماء الصحابة رضى الله عنهم أجمعين . إذ كانت المدينة العاصمة العلمية وظلت محافظة على مركزها العلمى ، ولم تخل فى زمن من الأزمان من عالم يقوم بحق الله فيها .

وقبل مجىء الشيخ رحمه الله كان قبله الشيخ الطيب رحمه الله نفع الله به كثيراً . وتوفى سنة ١٣٦٣ هـ . فكان جلوس الشيخ

رحمه الله للتدريس فى المسجد النبوى امتداداً لما كان قبله مع من كان من العلماء بالمسجد النبوى آنذاك من تلاميذ الشيخ الطيب وغيرهم . وكان درس الشيخ فى التفسير ختم القرآن مرتين

منهجه فى درسه : من المعلوم أن التفسير لا ينحصر فى موضوع فهو شامل عام بشمول القرآن وعمومه ، فكان المنهج أولا بيان المفردات ثم الإعراب والتصريف ثم البلاغة مع إيراد الشواهد على ما يورد .

ثم يأتى إلى الأحكام إن كان موضوع الآية فقهاً ، فيستقصى باستنتاج الحكم وبيان الأقوال والترجيح لما يظهر له . ويدعم ذلك بالأصول وبيان القرآن وعلوم القرآن من عام وخاص ومطلق ومقيد وناسخ ومنسوخ وأسباب نزول وغير ذلك .

وإذا كانت الآية فى قصص أظهر العبر من القصة وبين تاريخها وقد يربط الحاضر بالماضى كربط تكشف النساء اليوم بفتنة إبليس لحواء فى الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما وفتنته للجاهلية حتى طافوا بالبيت عرايا رجالا ونساء وها هو يستدرجهن فى التكشف شيئاً فشيئاً . بدأ بكشف الوجه ثم الرأس ثم

الذراعين ... الخ. فكان أسلوباً علمياً وتربوياً فى آن واحد، كما كان أحكاماً وحكماً .

وكان درسه أشبه بحديقة غناء احتوت أشهى الثمار وأجمل الأزهار، فى تنسيق الغرس وجمال الجداول تشرح الصدر وتشفى القلب وتروق للعين . فيستفيد منه جميع الناس ويأخذ كل واحد ما طاب له وما وسعه .

وقد يستطرد للقاعدة ببحث كامل كما استطرد فى الرد على ابن حزم فى رده القياس بإتيانه بأنواعه عند قوله « ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك » وقد طبع فى نهاية مذكرة الأصول تعميماً للفائدة. وبهذا الشمول والاستقصاء لم يكن يترك مجالاً لسؤال ولم يبق لذى حاجة تساؤل .

وأذكر كلمة لقاضى قرية (قرو) فى موريتانيا بعد أن سئل رحمه الله عن مهام من المسائل العلمية، وأجاب إجابة مستفيضة مفصلة كافية. قال قاضى قرو : لم يبق لأحد هنا كلام فقد ظهر الحق. ولا سؤال فقد زال اللبس وإن الحضور بين أحد رجلين عالم، فقد عرف الحق فلم يبق له سؤال، وجاهل فلا يحق له أن يسأل .

فكان نفعه رحمه الله فى المسجد النبوى للمقيم والقادم للقاصى والدانى نفعاً عظيماً .

ثانياً : فى سنة ١٣٧١ هـ افتتحت الإدارة العامة بالرياض على معهد علمى ، تلاه عدة معاهد وكليتا الشريعة واللغة .

واختير للتدريس فى المعهد والكليتين نخبة من العلماء من داخل وخارج المملكة . وكان رحمه الله ممن اختير لذلك فتولى تدريس التفسير والأصول إلى سنة ١٣٨١ هـ حين افتتحت الجامعة الإسلامية بالمدينة .

آثاره فى الرياض : كانت مدة اختياره للتدريس بالرياض عشر سنوات دراسية ، يعود لقضاء العطلة بالمدينة ، وما كان عمله فى التدريس بالمعهد والكلية كغيره من المدرسين . ولكن لبيان أثره حقيقة نورد نبذة عن الحالة العلمية آنذاك بالرياض .

كانت الرياض عاصمة نجد علمياً وسياسياً وكان يفد إليها طلاب العلم من أنحاء نجد لأخذ العلم عن آل الشيخ . وكان مركز الدراسة والتدريس فى المساجد إلا خواص الطلاب لدى سماحة المفتى فيدرسون عليه بعض الدروس فى بيته ضحى ، وكانت

الدراسة عمادها التوحيد والفقه والتفسير وكذلك الحديث والسيرة والنحو، وكانت دراسة مباركة تخرج عليها جميع علماء نجد، حتى جاءت تلك الحركة العلمية الجديدة، أو تنظيم الدراسة الجديد في عام ١٣٧١ هـ .

نشأة هذه الحركة : كانت نشأتها كما سمعت منه رحمه الله استجابة لرغبة المرحوم جلالة الملك عبد العزيز رحمه الله . قال لجماعة العلماء وهم في مجلسه الخاص : لقد كانت الرياض مليئة بالعلماء عامرة بالدروس . وانتقل الكثير منهم إلى رحمة الله ولم يخلفهم من عائلهم وأردت تعاونكم مع سماحة المفتي في تربية جيل من طلبة العلم عن العلوم الصحيحة والعقيدة السليمة، فنحن وأنتم مشتركون في المسئولية . فكانت هذه النهضة ترعاها عناية ملكية وتقوم عليها كفاءة علمية، تولى إدارة المعهد الشيخ عبد اللطيف ابن إبراهيم ورئاسته لسماحة المفتي، وافتتحت الدراسة على طلاب حلق المساجد الأكفاء وفيهم خواص طلاب فضيلة الشيخ محمد رحمه الله وأبناؤه . صنفت الدراسة على ثلاث سنوات ثانوية ومنها إلى الكلية يغذى هذا القسم قسم تمهيدي يأخذ من رابعة ابتدائي ويدرس خامسة وسادسة ومن ثم للمعهد الثانوي فالكليتين .

المنهج العلمى : وضع المنهج العلمى لتلك الدراسة على أساس فى العلوم الدينية والعربية وتكميل من المواد الاجتماعية وعلوم الآلة من مصطلح وأصول حتى الحساب والتقويم والخط والإملاء والتجويد . فكان قوياً فى موضوعه شاملا فى منهجه . وكان الطلاب من الصفوة الذين درسوا فى المساجد المتعطشين للعلوم متطلعين للتوسع وكان القائمون على التدريس نخبة ممتازة من الأجلة الفضلاء من وطنيين وأزهريين . فكان الجو حقاً جداً علمياً التقت فيه همة عالية من طلاب جيدين مع عزيمة ماضية من مشايخ مجتهدين . كان يسودهم الشعور بأن هذه طليعة نهضة علمية واسعة ، وكان رحمه الله كوالد للجميع وكان درسه التفسير والأصول . فكان فى التفسير المجال الواسع لجميع المواد والعلوم . وكان مع التزامه بالمنهج والحصص إذا تناول بحثاً فى أى مادة يخاله السامع مختصاً فيها ، فعرف له الجميع قدره وتطلع الجميع إلى ما عنده حتى المدرسون : وقد رغب المدرسون آنذاك فى قراءة بعض كتب شيخ الإسلام ابن تيمية واستيعاب دقائقه فلم يكن أولى بذلك من فضيلته رحمه الله . خصص لذلك مجلس خاص فى صحن المعهد بدخنه بين المغرب والعشاء .

في مسجد الشيخ : وفى مسجد الشيخ محمد رحمه الله بدأ درس الأصول لكبار الطلبة فى قواعد الأصول، حضره العامة والخاصة وكان يتوافد إليه من أطراف الرياض ، وكان الشيخ عبد الرحمن الإفريقي رحمه الله يدرس الحديث وكان درس الأصول بمثابة فتح جديد فى هذا الفن .

فى بيته رحمه الله : ولما كان الدرس فى الأصول فى المسجد عاماً وفى الطلبة من خواصهم رغبوا فى درس خاص فى بيته رحمه الله ، فكان لهم درس خاص بعد العصر . وكان بيته رحمه الله كمدرسة سواء لأبنائه الذين رافقوه للدراسة عليه وقد أملى شرحاً على مراقى السعود فى بيته على أخينا أحمد الأحمد الشنقيطى .

لقد كان اتدريسه هذا سواء رسمياً فى المعهد والكليتين أو فى المسجد ،أو فى المنزل كان له أثر طيب ونتائج حسنة لايسع متحدث التحدث عنها بقدر ما تحدثت هى عن نفسها فى أعمال كافه المتخرجين من تلك المعاهد والكليتين المنتشرين فى أنحاء المملكة المبرزين فى أعمالهم وفي أعلى مناصب فى كافة الوزارات .

ولا يغالى من يقول إن كل من تخرج أو يتخرج فهو

إما تلميذ له أو لتلاميذه فهم بمثابة أبنائه وأحفاده وكفى.

تقدير المسؤولين له : لقد كان بعلمه ونصحه وجهده وعفته موضع تقدير من جميع المسؤولين وبالأخص أصحاب الفضيلة آل الشيخ وصاحب الجلالة الملك عبد العزيز وصاحب السمو الملكى الأمير عبد الله بن عبد الرحمن وكان أشد الناس تقديراً له . وقد منحه جلالة الملك رحمه الله أمراً بالجنسية لجميع من ينتمى إليه وفى كفالته ثقة به وإكراماً له.

ولما زار الملك محمد الخامس ملك المغرب الرياض استأذن فى صحبة الشيخ إلى المدينة فرافقه تقديراً وإكراماً وألقى محاضرته بالمسجد النبوى بحضور الملك محمد الخامس بعنوان « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » وقد طبعت مرتين.

وهكذا تقدم الرياض رحمه الله فى ترحيب وإكرام وانتقل منها فى إعزاز وإكبار بعد أن ترك فيها أطيب الآثار. وساهم فى أكبر نهضة علمية فى البلاد.

دوره رحمه الله فى الجامعة الإسلامية : إن من يعرف نشأة الجامعة الإسلامية، وقد عرف الحركة العلمية الحديثة بالرياض ليقول إن

افتتاح الجامعة الإسلامية امتداداً للحركة العلمية الحديثة بالرياض .

والمتتبع للحركات العلمية فى العالم الإسلامى ليقول إن افتتاح الجامعة الإسلامية فى ذلك التاريخ عناية من الله وتداركاً للتعليم الإسلامى حينما أصيبت بعض دور العلم الكبرى بهزات فى برامجها .

فكان إيجادها امتداداً للحركة العلمية الحديثة بالرياض ومحيطها آنذاك تداركاً لبعض مافات ولعلها جزء من تحقيق الحديث : « إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها » . ومعلوم أن الإيمان عقيدة وعمل والعلم قبله .

ومن هنا نجدد أو نتذكر أهمية الجامعة الإسلامية ومدى وجودها بالمدينة المنورة ، وبالتالى مجىء أبناء العالم الإسلامى إليها للدراسة وللتربية في هذا الجو الروحى لتبرز لنا قيمة العمل فى الجامعة وأن رسالتها تربوية بجانب أنها علمية ، وأنها منعت الانتساب دون الحضور لهذا الغرض نفسه .

وقد كان لوالدنا رحمه الله فى هذه المجالات اليد الطولى والجهود الأكبر فلم يدخر وسعاً فى تعليم ولم يتوانى فى توجيه سواء فى دروسه أو أحاديثه أو محاضراته وسواء مع الطلاب أو المدرسين فكان كالأب

الرحيم والداعية الناصح الأمين . تحمل عنه تلاميذه إلى أنحاء العالم الإسلامى حينما وصلت منح الدراسة بالجامعة الإسلامية لبلدان العالم الإسلامى فهل يمكن أن نقول ولو ادعاء أو تجوزاً إنه كان بحق فى منزلة شيخ الإسلام فى هذا الوقت . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وقد كان بجانب التعليم عضو مجلس الجامعة ساهم فى سيرها ومناهجها ، كما ساهم فى إنتاجها وتعليمها .

وفى سنة ٨٦ هـ افتتح معهد القضاء العالى بالرياض برآسة فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفى وكانت الدراسة فيه ابتداء على نظام استقدام الأساتذة الزائرين فكان رحمه الله ممن يذهب لإلقاء المحاضرات المطلوبة فى التفسير والأصول .

قدامتداد نشاطه خارج المملكة : إذا كانت الجامعة الإسلامية فتحت للبلاد نوافذ تطل منها على العالم الإسلامى كله ، وجعلت من حق أولئك الأبناء ما يجب من رعايتهم وحق تلك الأقطار ما يلزم من تقوية أواصر الروابط . فكانت فكرة إرسال بعثات إلى الأقطار الإسلامية وخاصة إفريقيا ، فكان رحمه الله على رأس بعثة الجامعة

إلى عشر دول أفريقية بدأت بالسودان، وانتهت بموريتانيا موطن الشيخ رحمه الله. كان لهذه البعثة فى تلك البلاد أعظم الأثر وأذكر فى مجلس من أفاضل البلاد بموريتانيا وفى حفل تكريم للبعثة وكل إلي فضيلته رحمه الله كلمة الجواب فكان منها إن الذكريات لتتحدث وإنها لساعة عجيبة أدارت عجلة الزمان حيث نشأ الشيخ فى بلادكم ثم هاجر إلى الحجاز ثم ها هو يعود إليكم على رأس وفد ورئاسة بعثة فقد نبتت غرسة علمه هنا عندكم فذهب إلى الحجاز فنمت وترعرعت فامتدت أغصانها حتى شملت بوارف ظلها بلاد الإسلام شرقاً وغرباً وها نحن فى موطنه نجنى ثمار غرسها ونستظل بوارف ظلها. فكانت تلك الرحلة حقاً حلقة اتصال وتجديد عهد وإحياء معالم للإسلام.

وكان له رحمه الله العديد من المحاضرات والمحادثات سجلت كلها فى أشرطة لاتزال محفوظة، آمل أن أوفق لنقلها وطبعها إتماماً للفائدة إن شاء الله. ونضم إليها منهجه وسلوكه مع الحكام وصغار الطلاب والعوام مما يرسم الطريق الصحيح للدعوة إلى الله على بصيرة وبالحكمة والموعظة الحسنة.

في هيئة كبار العلماء: وكما شكلت هيئه كبار العلماء بعد سماحة المفتى رحمه الله، وهى أكبر هيئة علمية فى البلاد. كان رحمه الله

أحد أعضائها . وقد ترأس إحدى دوراتها فكانت له السياسة الرشيدة والنتائج الحميدة . سمعت فضيلة الشيخ عبد العزيز بن صالح حفظه الله وهو عضو فيها يقول : ما رأيت قبله أحسن إدارة منه مع بُعد نظر فى الأمور ، وحسن تدبر للعواقب .

في الرابطة : وفى رابطة العالم الإسلامي كان عضو المجلس التأسيسى لم تقلّ خدماته فيه عن خدماته فى غيرها . أذكر له موقفاً حدثني به جنب الرابطة مأزقاً كاد أن يدخل عليها شقاقاً أو انثلاماً .

حينما قدم مندوب إيران وقدم طلباً باعتراف الرابطة بالمذهب الجعفرى ومعه وثيقة من بعض الجهات العلمية الإسلامية ذات الوزن الكبير تؤيده على دعواه وتجيبه إلى طلبه . فإن قبلوا طلبه دخلوا مأزقاً وإن رفضوه واجهوا حرجاً فاقترحوا أن يتولى الأمر فضيلته رحمه الله فى جلسة خاصة . فأجاب فى المجلس قائلا : لقد اجتمعنا للعمل على جمع شمل المسلمين والتأليف بينهم وترابطهم أمام خطر عدوهم ، ونحن الآن مجتمعون مع الشيعة فى أصول هى :

الإسلام دين الجميع والرسول محمد صلى الله عليه وسلم رسول الجميع والقرآن كتاب الله والكعبة قبلة الجميع والصلوات الخمس وصوم

وحج بيت الله الحرام ومجتمعون على تحريم المحرمات من قتل وشرب وزنا وسرقة ونحو ذلك . وهـذا القدر كاف للاجتماع والترابط . وهناك أمور نعلم جميعاً أننا نختلف فيها وليس هذا مثار بحثها ، فإن رغب العضو الإيرانى بحثها واتباع الحق فيها فليختر من علمائهم جماعة ونختار لهم جماعة ويبحثون ما اختلفنا فيه ويعلن الحق ويُلتزم به . أو يسحب طلبه الآن . فأقر الجميع قوله وسحب العضو طلبه .

وهكذا كان رحمه الله حكيما فى تعليمه حكيما فى دعوته حكيما فى بحثه وإقناعه . وقد ظهر ذلك كل الوضوح فى مؤلفاته .

مؤلفاته رحمه الله : لاشك أن كل مؤلف يحكى شخصية مؤلفه فى علمه وفى عقله بل وفى اتجاهه كما قالوا : من ألف فقد استهدف ، أى لأنه يعرض ماعنده على أنظار الناس . وللشيخ تآليف عديدة منها فى بلاده ومنها هنا . فما كان فى بلاده هو :

١ — فى أنساب العرب نظماً ألفه قبل البلوغ يقول فى أوله :

سميتـه بخالص الجمـان   فى ذكر أنساب بنى عدنان

وبعد البلوغ دفنه قال لأنه كان على نية التفوق على الأقران ، وقد

لامه مشايخه على دفنه وقالوا : كان من الممكن تحويل النية وتحسينها .

٢ — رجز فى فروع مذهب مالك يختص بالعقود من البيوع والرهون وهو آلاف متمددة قال فى أوله :

الحمد لله الذى قد ندبا ... لأن نميز البيع عن لبس الربا
ومن بالمؤلفين كتبا ... تترك أطواد الجهالة هبا
تكشف عن عين الفؤاد الحجبا
إذا حجاب دون علم ضربا

٣ — ألفية فى المنطق — أولها :

حمداً لمن أظهر للعقول ... حقائق المنقول والمعقول
وكشف الرين عن الأذهان ... بواضح الدليل والبرهان
وفتح الأبواب للألباب ... حتى استبانت ماوراء الباب

٤ — نظم فى الفرائض :

ولهـا :

تركة الميت بعـد الخامس ... من خمسة محصورة عن سادس
وحصرها فى الخمسة استقراء ... وانبذ لحصر العقل بالعراء
أولهـا الحقوق بالأعيان ... تعلقت كالرهن أو كالجانى

وكزكاة التمر والحبوب ... إن مات بعد زمن الوجوب

وكل هذه المؤلفات مخطوطة .

أما مؤلفاته هنا فهى :

١ — منع جواز المجاز فى المنزل للتعبد والإعجاز . وموضوعها إبطال إجراء المجاز فى آيات الأسماء والصفات وإبقائها على الحقيقة . وقد زاد هذا المعنى فيما بعد فى آداب البحث والمناظرة .

٢ — دفع إيهام الاضطراب عن آى الكتاب ، أبان فيه مواضع ما يشبه التعارض فى القرآن كله كما فى قوله تعالى « وقفوهم إنهم مسؤولون» مع قوله تعالى : «فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان» وأن السؤال متنوع والمواقف متعددة . وقد طبع وما قبله ونفدا .

٣ — مذكرة الأصول على روضة الناظر : جمع فى شرحها أصول الحنابلة والمالكية وبالتالى الشافعية . مقررة على كليتى الشريعة والدعوة .

٤ — آداب البحث والمناظرة : أوضح فيه آداب البحث من إيراد المسائل وبيان الدليل ونحو ذلك . وهو أيضاً مقرر فى الجامعة ومن جزأين

٥ — أضواء البيان لتفسير القرآن بالقرآن: وهو مدرسة كاملة يتحدث عن نفسه طبع منه ستة أجزاء كبار والسابع تحت الطبع، وصل فيه رحمه الله إلى نهاية « قد سمع » . ولعل الله ييسر ويوفق من يعمل على إكماله ولو بقدر المستطاع . ومن عجيب الصدف أن يكون موقفه رحمه الله فى التفسير على قوله تعالى : « أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون » .

وهنا العديد من المحاضرات ذات المواضيع المستقلة طبعت كلها ونفدت وهى :

١ — آيات الصفات: أوضح فيها تحقيق إثبات صفات الله .

٢ — حكمة التشريع : عالج فيها العديد من حكمة التشريع فى كثير من أحكامه .

٣ — المثل العليا : بين فيها المثالية فى العقيدة والتشريع والأخلاق.

٤ — المصالح المرسلة : بين فيها ضابط استعمالها بين الإفراط والتفريط .

٥ — حول شبهة الرقيق : رفع اللبس عن ادعاء استرقاق الإسلام للأحرار.

٦ — على اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى » ألقاها بحضرة الملك محمد الخامس عند زيارته المدينة . وكلها عامة نافعة جديدة .

وبالتالى فقد كان لمنهجه العلمى فى أبحاثه وتدريسه وفى مؤلفاته ـ إحياء لعلوم درست وتصحيحاً لمفاهيم اختلفت .

فما أحيا من العلوم علم الأصول الذى هو أصل الاستدلال والاستنباط . والاجتهاد والترجيح وعمدة المجتهد وعماده وبجهله لايحق الاجتهاد ويجب التقليد المحض . كما يقولون: جهلة الأصول عوام العلماء : ففتح أبوابه وسهّل صعابه وأوضح قواعده ، وقرب تناوله تسهيلا لأخذ الأحكام من مصادرها ورد الفروع إلي أصولها .

كما أحيا آداب البحث والمناظرة فوضع منهجه وألف مقرره فكان خدمة للعقيدة فى أسلوب بيانها ، وكيفية إثباتها والدفاع عنها وطرق الإقناع عما فيه الخلاف .

كما فتَّح أبواباً جديدة وأحدث فنونا طريفة فى علوم القرآن من منع المجاز عن المنزل للتعبد والإعجاز ، إثباتا لمعانى آيات الصفات على حقيقتها وسد باب تعطيلها عن دلالتها إجراء للنص على حقيقته وإبقاء عليه فى دلالته .

ومن دفع إيهام الاضطراب عن آى الكتاب وبيان تصديق آى الكتاب بعضه بعضاً بدون تعارض ولا إشكال .

ومن تسليط أضواء البيان على تفسير القرآن بالقرآن رسم فيه المنهج السليم لتفسير القرآن الكريم . تفسير كلام الله بعضه ببعض ، وأبان أحكامه وحكمه وفتح كنوزه وأطلع نفائسه ونشر درره على طلبة العلم .

وكل ذلك فتح جديد فى علوم القرآن لم تكن موجودة على هذا النسق من قبل ، ولم تكن تدرس بهذا المثل .

كما أنه فى غضونها صحح مفاهيم مختلفة منها أن المنطق لم يكن يُعرف عنه إلا أنه تقديم العقل على النقل ومصادمة النص بالرأى ، وكان فعلا وسيلة التشكيك فى العقيدة باستخدام قضايا عقيمة . فهذَّب الشيخ رحمه الله من أبحاثه وأحسن باستخدامه فنظم قضاياه المنتجة ورتب أشكاله السليمة واستخدم قياسه فى الإلزام . سواء فى العقيدة أو أصول الأحكام ، وبعد أن كان يستخدم ضدها أصبح يعمل فى خدمتها . كما وضح ذلك فى آداب البحث والمناظرة .

مواقفه مع الحق : كان رحمه الله قوياً صلباً ليناً سهلاً .

كان قوياً صلباً فى بيانه، ليناً سهلاً فى الرجوع إلى ما ظهر إليه منه.

فى بعض الأعوام التى حججتها معه رحمه الله قدمنا مكة يوم سبع من الشهر، وكان مفرداً الحج وفى يوم العيد صحبته للسلام على سماحة المفتى رحمه الله بمنى، فسأله رحمه الله عن نسكه فقال: جئت مفرداً الحج وقصداً فعلت فأدرك المفتى رحمه الله أن وراء ذلك شيئاً ولكن تلطف مع الشيخ وقال: أهو أفضل عندك حفظك الله؟ فأجاب أيضاً حفظكم الله لا للأفضلية فعلت، ولكن سمعت وتأكد عندى أن أشخاصاً ينتمون لطلب العلم يقولون لا يصح الأفراد بالحج ويلزمون المفردين بالتحلل بعمرة. وهذا العمل لا يتناسب مع العديد من وفود بيت الله الحرام كل بما اختار من نسك وكل يعمل بمذهب صحيح، وجرت محادثة من أنفس ما سمعت فى تقرير هذا البحث من مناقشة الأدلة وبيان الراجح. وأخيراً قال رحمه الله: إنه لا يعنينى بيان الأفضل فهذا أمر مختلف فيه وكلٌ يختار ما يترجح عنده. ولكن يعنينى إبطال القول بالمنع من صحة إفراد الحج لأنه قول لم يسبق إليه. والأمة مجمعة على صحته. فما كان من سماحة المفتى رحمه الله إلا أن استحسن قوله ودعا له.

ولكأنى بهذا العمل من الشيخ رحمه الله الذى أراد به البيان عملياً صورة مما وقع من علىّ رضى الله عنه حينما بلغه عن عثمان رضى الله عنه أنه ينهى عن التمتع فدخل عليه وقال : كيف تنهى عن شىء فعلناه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج من عنده وهو يقول : لبيك اللهم حجاً وعمرة .

أما لينه مع الحق ورجوعه إلى ماظهر له منه ، ففي آخر دروسه فى الحرم النبوى فى رمضان الماضى فى سورة براءة أعلن عن رجوعه عن القول فى الأشهر الحرم بأنها منسوخة . وقال : الذى يظهر أنها محكمة وليست منسوخة . وكنا نقول بنسخها فى دفع إيهام الاضطراب ، ولكن ظهر لنا بالتأمل أنها محكمة . وهو الحق الذى ينبغى اعتماده والتعويل عليه .

ومما وقع لى معه رحمه الله وأكبرته فيه تواضعه وإنصافه سمعت منه فى مبحث زكاة الحلى فى أضواء البيان عند سرد الأدلة ومناقشتها ، أن من أدلة الموجبين حديث المرأة اليمنية ومعها ابنتها وفى يد ابنتها مسكتان غليظتان من ذهب ، فسألها صلى الله عليه وسلم « أتؤدين زكاة هذا ؟ فقالت : لا . فقال : هما حسبك من النار . فخلعتهما وألقت بهما » .

وأجاب المانعون بأن ذلك كان قبل إباحة الذهب للنساء ، فتساءلت مستوضحاً منه رحمه الله : وماذا يسمى هذا منه صلى الله عليه وسلم سكوته عن لبسه وهو محرم وسؤاله عن زكاته ، فقال : عجبا إن هذا يتضمن وجود اللبس عند السؤال ، ويدل على إباحته آنذاك ، لأنه صلى الله عليه وسلم لايقر أحداً على محرم ولا يتأتى أن يسكت على لبسها إياه وهو ممنوع ، ويهتم لزكاته ولو أعيد طبع الكتاب لنبهت عليه رغم أن جميع المراجع لم تلتفت إليه ، فهو بهذا يلقن طلبة العلم درساً في موقفه من الحق ، ولكأني بكلام عمر رضي الله عنه في كتابه لأبي موسى رحمه الله : ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ، ثم راجعت فيه نفسك وظهر لك الحق ، أن تأخذ به ، فالحق أحق أن يتبع . وقد رأينا من قبل للشافعي القديم والجديد وهذا مايقتضيه إنصاف العلماء وأمانة العلم .

هذا ما وسعني ذكره عن حياته العلمية في نشأته وتعلمه وتعليمه ، وعن تراثه العلمي في مؤلفاته وآثاره التربوية في أبنائه ، وأبناء العالم الإسلامي كله ، رحمه الله رحمة واسعة .

ولعل من أبنائه الحضور أو غيرهم من لديه المزيد على ذلك .

أما الناحية الشخصية : فى تقويمه الشخصى لسلوكه ، وأخلاقه ، وآدابه ، وكرمه ، وعفته ، وزهده وترفع نفسه وما إلى ذلك . فهذا ما يستحق أن يفرد بحديث ، وإنى لا أستطيع الآن تصويره ولا يسعنى فى هذا الوقت تفصيله . وما كان رحمه الله يحب أن يذكر عنه شىء فى ذلك ولكن على سبيل الاجمال لو أن للفضائل والمكرمات والشيم وصفات الكمال فى الرجال عنوان يجمعها : لكان هو أحق به .

وإذا كان علماء الأخلاق يعنونون لأصول الأخلاق والفضائل بالمروءة فإن المروءة كانت شعاره ودثاره . وكانت هى التى تحكمه فى جميع تصرفاته سواء فى نفسه أو مع إخوانه وطلابه أو مع غيرهم من عرفهم أو لم يعرفهم . وقد قال فيه بعض الناس فى حياته : إنه لاعيب فيه سوى عيب واحد ، هو أننا نفقده بعد موته .

وإن تفصيل ذلك لمتروك لمن خالطه عن قرب . وقد استعصى على المقال فى ذلك ولكأنى بقول القائل :

أهابك إجلالا وما بك سلطة

علىّ ولكن ملء عين حبيبها

ولـكن قد تـكفى الإشارة إذا لم تسعف العبارة . وأقرب شيء زهده فى الدنيا وعفته عما فى أيدى الناس ، وكرمه بما فى يده : لأن هذا لا يعلم إلا لمن خالطه ، وليس كل من خالطه يعرف ذلك منه بل من داخله ولازمه .

والواقع أن الدنيا لم تـكن تساوى عنده شيئاً فلم يكن يهتم لها . ومنذ وجوده فى المملـكة وصلته بالحـكومة حتى فارق الدنيا لم يطلب عطاء ولا مرتباً ولا ترفيعاً لمرتبه ولا حصولاً على مكافأة أو علاوة ولـكن ما جاءه من غير سؤال أخذه ، وما حصل عليه لم يكن ليستبقيه بل يوزعه فى حينه على المعوزين من أرامل ومنقطعين، وكنت أتولى توزيعه وإرساله من الرياض إلى كل من مكة والمدينة . ومات ولم يخلف درهماً ولا ديناراً ، وكان مستغنياً بعفته وقناعته . بل إن حقه الخاص ليتركه تعففاً عنه كما فعل فى مؤلفاته وهى فريدة فى نوعها ، لم يقبل التـكسب بها وتركها لطلبة العلم .

وسمعته يقول : لقد جئت معى من البلاد بكنز عظيم يكفينى مدى الحياة وأخشىء عليه الضياع . فقلت له : وما هو ؟ قال : القناعة . وكان شعاره فى ذلك قول الشاعر :

الجوع يطرد بالرغيف اليابس فعلام تـكثر حسرتى ووساوسى

وكان اهتمامه بالعلم وبالعلم وحده وكل العلوم عنده آله ووسيلة، وعلم الكتاب وحده غاية. وكان كثيراً ما يتمثل بأبيات الأديب محمد بن حنبل الحسن الشنقيطي رحمه الله فى قوله :

لا تسوء بالعلم ظناً يا فتى   إن سوء الظن بالعلم عطب
لا يزهدك أحد فى العلم أن   غمر الجهال أرباب الأدب
إن تر العالم نضوا مرملا   صفر كف لم يساعده سبب
وترى الجاهل قد حاز الغنى   محرز المأمول من كل أرب
قد تجوع الأسد فى أجامها   والذئاب الغبش تعتام القتب
جرع النفس على تحصيله   مضض المرين ذل وسغب
لا يهاب الشوك قطاف الجنى   وإبار النحل مشتار الضرب

حقاً إنه لم يسىء بالعلم ظناً ، ولم يهب فى تحصيله شوك النخل ولا إبار النحل ، فنال منه ما أراد واقتحم الحمى على عذارى المعانى ، وأباح حريمها جبراً عليها وما كان الحريم بمستباح .

أما مكارم أخلاقه ومراعاة شعور جلسائه ، فهذا فوق حد الاستطاعة ، فمدة صحبته لم أسمع منه مقالا لأى إنسان ولو مخطىء عليه يكون فيه جرح لشعوره ، وما كان يعاتب إنساناً فى شىء يمكن تداركه ،

وكان كثير التغاضي عن كثير من الأمور في حق نفسه، وحينما كنت أسائله في ذلك يقول :

ليس الغبي بسيد في قومه   ولكن سيد القوم المتغابي

ولم يكن يغتاب أحداً أو يسمح بغيبة أحد في مجلسه، وكثيراً ما يقول لإخوانه (اتكايسوا) أي من الكياسة والتحفظ من خطر الغيبة ويقول إذا كان الإنسان يعلم أن كل ما يتكلم به يأتي في صحيفته، فلا يأتي فيها إلا الشيء الطيب .

ومما لوحظ عليه في سنواته الأخيرة تباعده عن الفتيا، وإذا اضطر يقول : لا أتحمل في ذمتي شيئاً، العلماء يقولون : كذا وكذا

وسألته مرة عن ذلك، فقال : إن الإنسان في عافية مالم يُبتلى والسؤال ابتلاء، لأنك تقول عن الله ولا تدري أتصيب حكم الله أم لا . فما لم يكن عليه نص قاطع من كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجب التحفظ فيه .

ويتمثل بقول الشاعر :

إذا ما قتلت الشيء علماً فقل به   ولا تقل الشيء الذي أنت جاهله

فمن كان يهوى أن يرى متصدراً ويكره لا أدرى أصيبت مقاتله

وفى الجملة ، فقد كان رحمه الله خير قدوة وأحسنها فى جميع مجالات الحياة : فكان العالم العامل ولا أزكى على الله أحداً ، وقد خلف ولدين فاضلين أديبين يدرسان بكلية الشريعة الإسلامية جعلهما الله خير خلف لخير سلف ، والله أسأل أن يسكنه فسيح جنته ويوسع له فى رضوان رحمته وأن يعلى منزلته ويرفع درجته مع العلماء والصديقين والشهداء ، وحسُنَ أولئك رفيقاً .

ونفعنا الله بعلمه وسلك بنا طريقة عمله بما يرضيه تبارك وتعالى عنا ، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . . .